التوطين والتغريب: استراتيجية ترجمية أم إيديولوجية طمس للهويات الثقافية

Domestication and Foreignization: A Translational Strategy or A Cultural Ideology to Refine Nations' Identities.

سمية معزوز[1]

تاريخ الإرسال: 2023/06/16 **تاريخ القبول**: 2023/12/10 **تاريخ النشر**: 2024/06/01

الملخص:

يتناول هذا البحث دراسة نظرية حول أثر ظاهرتي التوطين والتغريب في صقل هويات الأمم وما تتطلبه العملية الترجمية من عوامل لسانية (لغوية) وعوامل غير لسانية (كالثقافة والدين والجغرافية والقيم) لإنجاح عملية النقل من لغة إلى لغة أخرى. وإن ترجمة النصوص الأدبية بخاصة، تتطلب من المترجم حمولة ثقافية كبيرة ووعي شديد بالفروقات التي تميز المجتمعات عن بعضها البعض بالإضافة إلى ضرورة التمكن من اللغتين المنقول منها وإليها. حيث يلعب المترجم دورا جديد في ساحة الأدب فور اتخاذه مسؤولية اتجاه الاختيار بين طريقين متناقضين: فإما أن يركز على ثقافة النص الأصل، فيختفي هو من أجل الحفاظ على هوية النص وكاتبه والثقافة والبيئة التي كتب فيها، فينقل كل غريب وجديد إلى الثقافة المستقبلة دون المبالات في الاصطدام الثقافي والحضاري والأخلاقي الذي سيواجهه القارئ في الثقافة الهدف وهذا ما يدعى بعملية التغريب. وإما أن يركز المترجم على بياناته ومعلوماته وخبراته التي استمدها من بيئته وثقافته وحضارته، فيحافظ على هويته ويكيف كل غريب وعجيب ويسقطه على بيئته المستقبلة فيصنع للقارئ الجديد سلاسة لغوية وثقافية تلغي الاختلاف وتمكنه من فهم النص الأصل لكن بنكهة الموطن حتى ولو اتهم المترجم بالعنف العرقي، وهذا ما يدعى بعملية التوطين في الترجمة. إذا يكمن دور المترجم الجديد في الحفاظ على الهويات لكن بعد أخذ الاختيار وتحمل مسؤولية النتائج. فإما يحافظ المترجم على هويته هو ويعطي هوية جديدة للنص الأصل في الثقافة المستقبلة، وإما أن يحافظ على هوية النص الأصل بكل معالمه ومقوماته ويرغم المتلقي على طمس هويته وتقبل الاختلاف. وفي الحالتين هناك ضياع لهوية او لأخرى.

الكلمات المفتاحية: **الترجمة، الهوية الثقافية، التوطين والتغريب، اختفاء المترجم، العنف العرقي.**

[1] Soumaya MAZOUZ, Superior School in Finance and Accounting, Algeria, smazouz@escf-constantine.dz.

Abstract:

This theoretical research spots the impact of domesticating and foreignizing theory on Refining the nations' cultural identities. It demonstrates the different elements translation requires to finish the transfer process from one language to another successfully. We mean by the different elements both: linguistic factors and extra-linguistic ones (such as culture, religion, geography and values). Translating literary texts, in particular, requires from the translator a great cultural burden and a keen awareness of the differences that distinguish societies from each other, in addition to the necessity to master both source and target languages. The translator will have a new role in the field of literature as soon as he takes responsibility for choosing between two contradictory paths: either he focuses on the culture of the original text or preserves his cultural features. If the translator chooses the fist path, he will be invisible in order to protect the identity of the text and its writer, besides preserving the culture and the environment in which it was written. So, the translator here will transfer all the foreign and bizarre elements to the target without caring about the cultural, civilizational and moral collision that the reader could encounter in his environment, and this process is called foreignizing. However, if the translator maintains the data, information and experiences that he derives from his one cultural environment in order to preserve his identity and adapt every strange and drops it on his receiving environment, he will create a linguistic and cultural fluency for the new reader that eliminates the differences and enables him to understand the original text but with a local taste. In this case-which is called the domesticating process- the translator could be accused for ethnic violence, although his purpose is to help the rider to better understand the original text. Consequently, the role of the new translator is to preserve identities, but only after making the choice and taking responsibility for the results. Either the translator preserves his own identity and gives a new identity to the original text in the receiving culture, or he preserves the identity of the original text with all its features and components, and obliges the recipient to blur his identity and accept the differences. In both cases, there is a loss of identity for one party or another.

Key Words: Translation, Cultural Identity, Domesticating and Foreignizing, Translator Invisibility, Ethnic Violence.

مقدمة

إن إشكالية الترجمة لا تقوم فقط على مقومات النص اللغوية واللسانية، بل تتعداها لتغوص في خضم المكون الثقافي والاجتماعي لذات وفكر الكاتب المنتج للنص الأصل، وكذا فكر وذات المترجم الذي سيعنى بنقل هذا النص إلى بيئة وثقافة وحضارة أخرى غريبة عنه. لكن مجرد محاولة المترجم في إيصال الفكرة الأصل في أبهى حلة وأنقى جوهر إلى البيئة الهدف من أجل إحداث الوقع ذاته في نفوس القراء المستقبلين للنص المترجم، سيشكل اضطرابا في الهوية لا محالة سواء أتعلق الأمر بهوية النص الأصل أو هوية المترجم. فأما عن هوية النص فسيُعتدى عليه إما بعملية توطين أو عملية تغريب، فيتعرض في الأولى إلى العنف العرقي والسيطرة الثقافية المهيمنة، وفي الثانية إلى ممارسة ثقافية تمردية تحاول إباحة الاختلاف الثقافي والعقائدي والحضاري بين الأمم. وأما عن هوية المترجم فسيُعتدى عليها أيضا إما بالطمس وهذا ما أسماه الباحث 'لورانس فينيتي' "إختفاء المترجم"، وإما اتهامها بالخيانة والتعصب في حالة ما سمح المترجم بمخلفاته الثقافية أن تطفو على السطح وتتدخل في تأويل النص. وصدق المثل القائل: 'الانسان ابن بيئته' وعليه لا يمكن أن ينفك المترجم أو ينعزل عن تلك المكونات التي تصقل هويته الأصل، كما أن النص الأصل يُنتج في بيئة معينة لها ثقافة وأعراف وتقاليد وطرائق عيش مختلفة عن باقي الأمم، وبالتالي يسوقنا الحديث هنا عن صراع قائم ودائم بين الهويات: هوية المترجم وهوية النص الأصل. فكيف يمكن أن يفصل المترجم بين هذا وذاك؟ وهل يمكن الخروج من عملية الترجمة دون إمساس بالهويات، أم أن الأمر يستدعي ترجيح كفة عن أخرى فتكون الغلبة للهوية المتغطرسة التي تفرض نفسها في ساحة النزال الترجمي؟

1 مفهوم الثقافة وعلاقتها بالترجمة

1.1 تعريف الثقافة لغة

الثقافة في اللغة العربية مشتقة من الفعل الثلاثي 'ثَقِفَ'، يثقف ثقفا، وهي تعي في معجم لسان العرب سرعة التعلم. فثقف الشيء بمعنى حذقه وظفر به. ورجل ثقف: حاذق، فهم، فطن. (منظور، الجزء 6، الصفحات 492-493)كما جاء في المعجم الوسيط أن الثقافة من المصدر ثَقِفَ. وثقف الرجل في الحرب: أي أدركها، و--- الشيء: ظفر به. وفي التنزيل العزيز: "واقتلوهم حيث ثقفتموهم" أي وجدتموهم. وثقّف الشيء: أقام المعوج منه وسوّاه. و--- الإنسان: أدبه وهذبه وعلمه. وتثاقفوا بمعنى: ثاقف بعضهم بعضا. وأما الثقافة فهي: العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها. (مصطفى، 1960، صفحة 98)

وعليه يظهر لنا من التعريفين السابقين أن الثقافة هي عبارة عن عملية إدراك وإيجاد علوم ومعارف وفنون من أجل تعليم الانسان وتهذيبه عن طريق المثاقفة أي المخالطة، ما يعني انتقال تلك المعلومات والمعارف بين الناس من أجل إعمام المنفعة على بني البشر. حيث يذهب المعجم الفلسفي إلى تعريف الثقافة تعريفا شافيا وشاملا في القول التالي: " الثقافة هي كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع وتشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية، ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي وأضاف إليها الحاضر وهي عنوان المجتمعات البشرية." (صليبا، 1982، صفحة 58) وعليه يزيد هذا التعريف عن التعريفين اللغويين السابقين، مفهوم التواصل الاجتماعي بين الأفراد وكذا تواصل الأجيال بين الخلف والسلف وتواصل الأزمان بين الماضي والحاضر.

2.1 مفهوم الثقافة اصطلاحا

يعتبر بعض المنظرين أن الثقافة هي نتاج ذاك التفاعل القائم بين الانسان والطبيعة، حيث تعلم الطبيعة الانسان وتثري عقله بالتجارب والمعارف والعلوم من جهة، وتسمح له بتطوير تلك الخبرات وصقلها من جهة أخرى، عن طريق استخدام مواهبه ومهاراته التي أنعمه الله بها ومن ثم تقاسمها مع بني جنسه. حيث يقول محمد لخطيب في هذا الشأن: "تكمن ماهية الثقافة في استكمال وتحسين وتربية ما وجد أصلا على شكل هبة طبيعية، فالثقافة هي كل ما وضع وخلق وطور وحسن وطرأ عليه تغير من قبل الانسان." (الخطيب، 2005، صفحة 21) وهكذا يتماشى هذا التعريف مع التعريف اللغوي السابق الذي يشترط في الثقافة الإدراك، وبالتالي فهو يربطها بالعقل الذي يسمح للإنسان بالتطوير والتحسين والتقييم من اجل إحداث التغيير والتميز عن باقي المخلوقات.

وحتى لو كانت عامة الناس وحتى الطبقة النخبوية لازالت تخلط بين المصطلحين 'ثقافة' (culture) وحضارة' (civilisation)، إلاّ أن الاختلاف بينهما قائم وجلي رغم كونهما وجهان لعملة واحدة. حيث يفرق 'سلامة موسى' بين هذين المصطلحين في كتابه "الثقافة والحضارة" قائلا: " الثقافة هي المعرف والعلوم والآداب والفنون يتعلمها الناس ويتثقفون بها، وقد تحتويها الكتب ومع ذلك فهي خاصة بالذهن. أما الحضارة فهي مادة محسوسة في آلة تخترع وبناء يقام ونظام حكم محسوس يمارس، ودين له شعائر ومناسك وعادات ومؤسسات، فالحضارة مادية وأما الثقافة فذهنية." (موسى، 1927، صفحة 171)

وعليه نستخلص من هذا القول أن الحضارة هي ميراث جماعي حتمي، يسلمه الخلف للسلف كما هو، دون زيادة او نقصان وعلى الوارث أن يهتم بتلك التركة ويحافظ عليها ليسلمها لمن بعده بكل أمانة. أما الثقافة فهي فردية، ويمكن للشخص تطويرها وتنظيمها وتكييفها مع وضعه الجديد ومقتضيات الزمن الذي يعيش فيه. فإن كانت البنات تزوح في الحضارة العربية في

سن مبكر، فثقافة العربي في زمننا هذا– قد كيفت هذه الحضارة مع مستلزمات العصر والتغير البيولوجي لجسد الفتيات في العصر الحاضر وبالتالي لا يمكن للعقل –الذي قلنا فيما سبق أنه مركز الثقافة ومنبعها– أن يقبل تزويج فتاة في عمر التاسعة أو العاشرة وهي لا تزال تلعب بالدمى ولا تفقه شيئا في النظام الأسري والحياة الزوجية.

وهكذا يمكن أن نستخلص من كل تلك التعريفات أن الثقافة هي الجزء العاقل من الحضارة الذي يسمح للشخص بالاعتراض والتغيير والتطوير ومواكبة العصر عن طريق استخدام العقل والمعارف بدل الميراث والحتمية المطلقة والإجبار. حيث يشرح المفكر 'علي عزت بيغوفتش' صاحب الكتاب الشهير "الإسلام بين الشرق والغرب" مفهوم الحضارة قائلا: "الحضارة هي استمرار للتقدم التقني لا الروحي... حيث تمثل الحضارة تطور القوى الكامنة التي وجدت في آبائنا الأوائل الذين كانوا أقل درجة في مراحل التطور. إنها استمرار للعناصر الآلية– أي العناصر غير الواعية التي لا معنى لها في وجودنا. ولذا فإن الحضارة ليست في ذاتها خيرا ولا شرا. وعلى الانسان أن يبني الحضارة تماما كما عليه أن يتنفس ويأكل. إنها تعبير عن الضرورة وعن النقص في حريتنا. أما الثقافة فعلى العكس من ذلك: هي الشعور الأبدي بالاختيار والتعبير عن حرية الانسان. فالحضارة تعلم، أما الثقافة فتنور. تحتاج الأولى إلى تعلم، أما الثانية فتحتاج إلى تأمل. (بيغوفتش، 2013)

3.1 علاقة الترجمة والثقافة

إن حديثنا عن مفهوم الثقافة قد قادنا للحديث عن الحضارة، نظرا لتشابك المعنيين واختلاط المفهومين هو الآن يقودنا للحديث عن علم الترجمة، نظرا لاتصال المفاهيم الثلاثة ببعضها البعض. فقد استخلصنا من كل تلك المفاهيم التي سبق عرضها عن الثقافة، أن الإنسان هو مصدر الثقافة والحضارة معا، كما أنه هو الناقل لها ومطورها ومكيفها مع أحوال البشر. وبما أن كل تلك العمليات العقلية (من نقل وتكييف وتطوير) إنما هي–بطريقة أو بأخرى– عمليات ترجمية، فلا يمكن ولا بأية حال من الأحوال فصل مفهوم الترجمة عن الثقافة والحضارة.

لقد ذكر في قصة بابل التي تروي تاريخ الترجمة، أن سبب ظهور الترجمة أساسا هو اختلاف الألسن مما أدى إلى إيجاد حل تواصلي كي يستطيع البشر التفاهم فيما بينهم وتبادل المعارف والخبرات. لكن فكرت الاختلاف تلك التي تعتري ألسن البشر هي متصلة أساسا بفكرة اختلاف وتمايز المجتمعات. وإن تعدد المجتمعات وتباينها راجع إلى تباين في الثقافات لأن الطبيعة الإنسانية واحدة والتمييز مرده الأنماط الثقافية العامة التي تميز أعضاء المجتمع عن غيرهم تمييزا بيّنا. فيظهر ذاك التمييز في مظاهر الحياة المختلفة من اقتصاد وعمران وصناعات تقنية ووسائل للاتصال والمواصلات وعلم وفن وقيم ومبادئ بما تتلاءم مع نمو النشاط الفكري.

فكل مجتمع بشري له لسان خاص به و ثقافة تميزه عن باقي المجتمعات وقد يحدث" أن يوجد تشابه قوي بين مجتمعين لقوة الاتصال بينهما وتشابه المراحل التاريخية والبيئية والجغرافية، وعلى الرغم من وجود مثل ذلك التشابه فإنه لا يصل أبدا إلى حد التطابق وذلك لأن كل مجتمع تتميز ثقافته بطابع خاص (الخطيب، 2005، صفحة 22)" فنأخذ على سبيل المثال المجتمع الجزائري والمجتمع التونسي، الذي يقتربان من حيث الناحية الجغرافية والتاريخية والبيئية، لكن نجد الثقافة التونسية تختلف كثير عن الثقافة الجزائرية من حيث نمط العيش وأفكار التحرر والمفاهيم العامة حول الدين والمرأة وكذا السياسة. وبالتالي نجد كل مجتمع منهما يتفرد بهويته رغم كل تلك العناصر الحضارية والجغرافية التي تربط بين الشعبين.

وبما أن الترجمة كما يعرفها 'جورج مونان' هي عملية "انتقال، ولا شيء سوى انتقال معنى النص من لغة إلى أخرى." (Georges, 1963, p. 23) فإن هذا الانتقال من لغة إلى لغة أخرى يستدعي نقل كل تلك المقومات التي تبني اللغات بما فيها الثقافة والدين العادات والتقاليد وغيرها من مقومات الأمم. حيث توجد "علاقة واضحة بين اللغة والمحتوى الثقافي، مما يجعل اللغة أساسا ثقافيا يلتزم به أفراد المجتمع مثل أي ظاهرة اجتماعية أخرى تتكون ضمن إطار ثقافة ما." (زكي، 2005)

وعليه نستخلص من كل ما سبق، أن الثقافة فردية، وهي تكتسب من بيئة الانسان وكل المؤثرات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تحيط به. وإن وسيلة نقل الثقافة هي اللغة والتي تعتبر في حد ذاتها على رأي 'بنجامان لي وورف' (*Benjamin Lee Whorf*) عامل نسبي، وبالتالي يكون التعامل مع اللغة –سواء أكان التعامل من باب الفهم أو الكتابة أو الترجمة– هو تعامل فردي ونسبي، ما يجعل إدراك الفرد للعوالم أيضا نسبيا بل ومرتبطا بنوع اللغة التي يتحدثها هذا الشخص –وهذا هو لب النظرية النسبية للغة التي تذهب لكون تصورات الأشخاص نسبية وهي تخضع للغتهم المنطوقة. (Christina, 2004) وعليه، فإن الترجمة هي بدورها عملية فردية نسبية تعمل على نقل الخبرات والمعارف والمفاهيم استنادا إلى كل ما تلقاه المترجم في بيئته من ثقافة.

2- مفاهيم ترجمية حول التوطين والتغريب

إن الحديث عن ترجمة الثقافة، ومفهومي التوطين والتغريب يعني بالضرورة الحديث عن الترجمة الأدبية. حيث أن نقل النصوص الأدبية بكل أنواعها هو ما يثير هذه الإشكالات الثقافية والرقية التي تؤثر لامحالة على جودة الترجمة. وأما عن الترجمة الأدبية فهي" ترجمة الأدب بفروعه المختلفة أو ما يطلق عليه الأنواع الأدبيّة المختلفة– مثل الشّعر والقصة والمسرح وما إليها– وهي تشترك مع التّرجمة بصفة عامّة أي التّرجمة في شتّى فروع المعرفة (...)، في أنّها تتضمن تحويل شفرة لغوية أي مجموعة من العلامات المنطوقة أو المكتوبة إلى شفرة أخرى. ووجود المبادئ اللّغوية العالميّة والطّاقة اللّغوية الفطريّة المشتركة

بين البشر جميعا لا ينفي أنّ الشّفرات المستخدمة فعليا في الكلام والكتابة تختلف من لغة إلى أخرى، وتقتضي التّحويل ابتغاء توصيل المعنى الذي هو الهدف الأوّل للمترجم. (عناني، 2003، صفحة 18)

وإذا كان توصيل المعنى هو الهدف الأول للمترجم على ضوء قول محمد عناني، فإن المنظر 'هنري ميشونيك' يذهب في كتابه **'شعرية الترجمة'** إلى أهمية نقل الشكل والجانب الجمالي الصوري الذي يعتبر حامل معنى النص وهيكله، وإن كل نقل للمعنى دون شكله يعد خيانة ترجمية حيث يقول:

Une traduction d'un texte littéraire doit faire ce que fait un texte littéraire, par sa prosodie, son rythme, sa signifiance, comme une des formes de l'individuation, comme une forme-sujet. Ce qui déplace radicalement les préceptes de transparence et de fidélité de la théorie traditionnelle, en les faisant apparaitre comme les alibis moralisants d'une méconnaissance dont la caducité des traductions n'est que le juste salaire". (Meschonnic, 1999, p. 16)

فعلى حد قول 'ميشونيك'، قمة الأمانة في الترجمة أن يفعل النص الأدبي المترجم الفعل نفسه للنص الأصل لدى نفسية القارئ، فيتمتع بكل تفاصيله الشكلية من موسيقى وبيان وإعجاز الألفاظ، وكذا تفاصيله المعنوية التي تدخل الكثير من العوامل الثقافية في تفسيرها كما سبق وأن ذكرنا. ومن هنا يقوم الجدل بين المنظرين في الترجمة حول ماهية الأمانة في الترجمة وكيفية الوصول إليها. لكننا سنتطرق سنبحث عن مفهوم الأمانة في هذا المقال فقط من منظور نظرية التوطين والتغريب التي أسسها 'فينوتي' لأنها تأخذ بعين الاعتبار العوامل الثقافية والأيديولوجية في الترجمة.

1.2مفهوم التوطين في الترجمة

يعرف التوطين على أنه عملية حجب لكل ما هو أجنبي وغريب في الثقافة الباثة (أي ثقافة النص الأصل)، واستبداله، بما هو مألوف ومتداول في الثقافة المستقبلة (أي ثقافة اللغة المترجم إليها). وهكذا يعمل التوطين على التقليل من الفروق الثقافية بين اللغتين، ويحاول أن يجعل الترجمة تبدو كنص أصلي نابع من مصدره لتحقيق المفهومية والمقروئية. وقد جاء هذا لمصطلح على يد المنظر لورانس فينوتي ضمن النظريات ما بعد الكولونيالية، والتي حولت بدورها العمل الترجمي من قضية لغوية إلى قضية ثقافية سياسية تمثلت في رصد الترجمة عبر تبيان القوى في العالم. وعليه جاء 'فينوتي' بمفهوم 'الثقافات المهيمنة' وجعلها هي من تحدد العلاقات السائدة بين جانبي القوة والقيادة أما عن ثقافات الدول المسيطر عليها

فقد وصفها بالضعف والتبعية. وهكذا يخلق التهميش لأفراد الامم المستعمرة ويعتم على ثقافاها وبالتالي تتزايد التبعية الفكرية والثقافية للدول المهيمنة التي تربح فيميزان القوى الدولية.

كما يصف 'فينوتي' التوطين على أنه نظرة "فوقية لا ترحب بالآخر وتنظر إلى ثقافته كمصدر إزعاج بالنسبة لمجتمع له نظام ينظم شؤون أفراده الداخليين يناهض التجمعات الخارجية بل ويعاديها من خلال تمسكه بثقافته الأولى وإصراره عليها." (Venuti, 1995, p. x) وأما عن مفهوم الفوقية فيربطه 'فينوتي' بمفهوم التسلط ويوضح أن كل ثقافة مهيمنة تمارس نوعا من التسلط على ثقافة الغير، إذا ما حاول المترجم اتباع عملية التوطين فيقول: "إن ابتناء أو اعادة تشكيل نص أجنبي وفقا للقيم و المعتقدات و التصورات في اللغة الهدف لا يتم إلّا من خلال علاقة تسلسلية هرمية بين المركز و الهامش، تزيل الآخر و تسهم في تبرير الفوقية و التسلط، و هذا ما يسميه بالعنف العرقي الذي يربطه بالسلاسة. فالتأويل الطاغي الذي تما رسه الترجمة التوطينية، يعكس تميزا .عرقيا واضحا والصدامات الجيوسياسية والاستعمار والحروب." (Venuti, 1995, p. 19)

هنا نجد أنفسنا أمام مصطلح جديد وقوي، مليء بالشحنات الدلالية الا وهو مصطلح 'العنف العرقي'، والذي يريد به 'فينوتي' ذاك الظلم الممارس من قبل الثقافات المهيمنة والطاغية على تلك الثقافات الضعيفة فتحاول إبادتها واستخلافها في الأرض.كاللغة الإنجليزية مثلا التي تحاول نشر معالمها الثقافية عبر بقاع العالم وبخاصة تلك المستعمرات البريطانية التي كانت تحت هيمنتها العسكرية ولا تزال تحت هيمنتها السياسية والثقافة. ورغم قساوة المفهوم وغضاضة التعبير، إلا ان فينوتي يرى أن " العنف العرقي في الترجمة لا يمكن تفاديه كلية وهو أمر لا مفر منه، فاللغات والنصوص والثقافات الأجنبية تخضع لدرجات متفاوتة من التهميش والاحالة بحسب وضعها في الثقافة الهدف، وهذا معناه أن العنف من الثقافة المركزية إلى الهامشية، ليس بقدر العنف في الاتجاه المعاكس، فالثقافة المركزية تملك القوة التي تمكنها من التصرف في الثقافات الهامشية بمعزل عن أهلها وهذا ما يعد إشكالا عندما تكون الترجمة توطينية طاغية، ومن وجهة نظر عرقية متمركزة .(Venuti, The Scandals of Taslation, 1998, p. 10)

كما اشتهر المنظر 'فينوتي' بمفهومه المتعلق 'باختفاء المترجم' وخصص له كتابا برمته، حيث يشرح لنا كيف يمكن للمترجم أن يناشد 'الأمانة' في حفظ 'الهوية' عن طريق محاولته لتوطين كل ما يأتي غريبا عن ثقافته وبيئته، فيشعر القارئ للنص المترجم وكأن النص كتب أصلا بلغته وخلق أصلا في ثقافته. فيقول 'فينوتي' في كتابه (اختفاء المترجم) ان الترجمة لها علاقة وطيدة بسلطوية الثقافة التي تدعو بدورها إلى إخفاء المترجم ومقاومة كل غريب ويقصد بمصطلح اختفاء: "إضفاء الطابع المحلي على النص المترجم. حيث يضع المترجم السلاسة والطلاقة في مقدمة أولوياته لتحقيق المقبولية والمقروئية، فيأتي النص المترجم شبيها بنص الكتب أصلا في هذه اللغة مما يؤدي إلى اختفاءه فيوحي بالشفافية أو ما يسمى 'وهم الشفافية'

الذي يخفي الكثير من العوامل التي تمت بموجبها الترجمة بتدخل المترجم الحاسم في النص الأجنبي. وبقدر سلاسة الترجمة، يختفي المترجم" (Venuti, The Translator's Invisibilty, A History of Translation, 1995, pp. 1-5)

نستخلص من كل ما سبق من مفاهيم حول نظرة 'فينوتي' لمفهوم التوطين، أن هذا الأخير يعتبر التوطين بمثابة استعمار وغطرسة تمارس من قبل الثقافات المهيمنة والقوية على باقي الثقافات المستضعفة والمغلوبة على أمرها. وإن كل عملية توطين أثناء الترجمة هي محاولة من المترجم لطمس هوية الأخر وإبادة ثقافة برمتها حتى وإن تخفى تحت شعار السلاسة والحرفية والمعرفة الترجمية التي توهم بوجود شفافية. حيث يؤكد 'دوغلاس' على وهم الشفافية في الترجمة ويقول: "إن المعرفة المترجمة تبدو شفافة لكنها ليست كذلك، فهي تلقي قناعا على ضروب عدم التكافؤ بين الثقافات وتغتذي من افتراض تاريخ انساني كوني يسير بنا جميعا في الاتجاه ذاته." (دوغلاس، 2009، صفحة 80)

2.2 مفهوم التغريب في الترجمة

يعرف التغريب في ترجمة على أنه نقل النص على أساس كل الفروق الثقافية التي تميز ثقافة اللغة الأم عن ثقافة اللغة الأصل، فيحافظ بذلك المترجم على نكهة النص الأجنبي ومكنوناته، لغاية الإخبار الثقافي والامتثال لمبدأ 'الأمانة' الترجمية المنشودة التي لم يلقاه 'فينوتي' في عملية التوطين واعتبرها غطرسة واستعمارا وإذلالا للثقافات الضعيفة.

حيث يطلق 'فينوتي' مصطلح المقومة' (Resistancy) على مفهوم التغريب ويقول في هذا الشأن: " أن مقاومة التمركز الاثني والعنصرية الثقافية والنرجسية والامبريالية يتم باتباع الاستراتيجية التغريبية التي تتيح اختراق الثقافة الأخرى واكتشاف أشد مناطقها غموضا وتعتيما، وهنا تتدخل القراءة كعامل حاسم. فعند هذا المستوى يجد القارئ تمنعا من النص يعكس انعدام سلاسته والتي تضعه في حالة من التشتت والاضطراب لابتعاده عن بيئته. (Venuti, The Translator's Invisibilty, A History of Translation, 1995, p. 14)

إذا يفهم من القول أن 'فينوتي' يرى في عدم السلاسة –التي تعتبر عيبا أسلوبيا ولغويا– رمزا جيدا يظهر عدم تدخل المترجم عند عملية النقل في شرح الثقافة الأجنبية وتبسطها للقارئ في اللغة الهدف. بل بالعكس، يسعى المترجم من هذا المنظور إلى إثارة القارئ وتشويشه بل وتحدي ثقافته ولغته وعاداته ونمط عيشه وارغامه على المقاومة للاطلاع عى كل غريب واحترام الآخر حتى ولو لم نتفق معه. وهكذا يصف 'فينوتي' هذا الاعتداء 'بالترجمة الجيدة' رغم أنها تشيع الاضطراب في الثقافة الهدف.

لكن في الوقت ذاته يحذر 'فينوتي' من النقل غير الواعي وغير الرشيد بين الثقافات، حيث تنتهي حرية المترجم عندما تبدأ حرية القراء. ويظهر لنا أن التغريب هو محاولة المترجم لإغناء الثقافات وتعريف شعب ما بعادات وتقاليد وفكر شعوب أخرى، وليس ارغامه على التنصل من هويته ولبس هوية الآخر. حيث يقول هذا الأخير:" ما أدعو إليه ليس النقل العشوائي لأي ثقافة أجنبية، إنما إيجاد وسائل نظرية ونقدية ونصية تمكن من دراسة الترجمة وممارستها من موقع الاختلاف بدل التجنيس الذي ينتشر على نطاق واسع اليوم." (Venuti, The Translator's Invisibilty, A History of Translation, 1995, pp. 14-15)

نلاحظ في القول السابق استعمال 'فينوتي' لمصطلح جديدي ألا وهو 'التجنيس' وهو الذي يقصد به 'التوطين'، وهذا ما يؤكد تأثر 'فينوتي' بأفكار المنظر 'أنطوان بارمان' الذي كان ينادي أيضا بإضفاء الطابع الغرائبي على النص المترجم ويرفض فكرة التوطين–وبخاصة في ترجمة الروايات– والذي أطلق عليها مصطلح 'التجنيس' أو 'الترجمة الإثنومركزية' التي تعمل على إقصاء الثقافات الضعيفة وتزيد القوية منها غطرسة واستبدادا وتسهل بذلك لها طريق الاحتلال الفكري والثقافي. حيث يرى 'بارمان' أن إبداعية الترجمة تظهر كلما تمسك بالنص الأصل، فهو بذلك يحاول مقاومة كل الأشكال النمطية المتوارثة مهما كانت علاقتها وطيدة بالهوية ويرفض القولبة ضمن حدوده لضيقة. ويذكر 'بارمان' في دراسته حول التجنيس والتغريب عوامل قد تعمل على تشويه النص المترجم وبالتالي يجب تفاديها وتجنبها أثناء عملية النقل من أجل إنجاح عملية الترجمة والابتعاد عن عملية التوطين، وهي ملخصة معظمها في النقاط التالية: الترشيد والتوضيح والتوسع والارتقاء وتدمير الشبكات الدلالية العامة وتدمير التعابير الاصطلاحية والتعابير الثابتة وطمس التداخل اللغوي. (Berman, 1999)

3– العوامل غير اللسانية المأثرة على إحداثية التوطين والتغريب

لقد تطرقنا في العنصر السابق إلى مفهومي التوطين والتغريب وبخاصة عند المنظر 'فينوتي' ورأينا كيف أن الترجمة – وبخاصة الترجمة الأدبية– متعلقة بطريقة أو بأخرى بإحدى هاتين الاحداثيتين في حقل الترجمة. حيث نجد المترجم للنصوص الأدبية واقفا على مفترق طرق بين أمانته اتجاه النص الأصل بكل ما يحوي من غريب وجديد على بيئة الثقافة المترجم إليها، وأمانه اتجاه القارئ الذي يبحث عن السلاسة وفهم العوالم دون تجريح أو مساس بعاداته وتقاليده وتابوهاته. وبين هذا وذاك، نجد عوامل كثيرة تدخل أثناء عملية الترجمة –بطريقة واعية او غير واعية– وتطفو على السطح، في حين يبقى الاختيار للمترجم أن يقاومها ويستعمل عملية التغريب أو يمشي حذوها ويغلبها على النص الأصل وكاتبه فتصبح هي المهيمنة وهنا تكون عملية التوطين. وأما عن أهم تلك العوامل فنذكر منها: العقل والدين والبيئة الجغرافية والقيم.

1.3العقل

فأما عن العقل فهو نعمة لله على عباده وهو ما يميز الانسان عن باقي المخلوقات. وبالعقل يتم التمييز بين الأشياء والتحكيم بين الخير والشر والتعبير عما نحب ونكره ونألف ونستغرب. إذا يلعب دورا فعالا في عملية الترجمة –بغض النظر عن عملية الفهم والنقل– ويساعد المترجم على رصد الغريب في الثقافات المختلفة ومقارنتها بالثقافة الأصل ومن ثم يقرر المترجم إما باستعمال عملية التوطين أو التغريب أثناء عملية النقل. "فالعقل في المقام الأول هو كسبي كنتاج للبيئات الثقافية التي نشأ فيها وعاشها، ولذلك فأثر البيئة الثقافية على العقل يتفوق كثيرا على أثر البنية الطبيعية (الفيزيائية) فالبنية الطبيعية تؤثر في المخ لكن البيئة (البنية) الثقافية تؤثر في العقل." (مكروم، 1999، صفحة 6)

2.3 البيئة الجغرافية

لقد رأينا في عامل العقل، أن منشأ العقل هو البيئة بما فيها الثقافة والحضارة والمجتمع والعادات وطرق التفكير والجغرافيا فكلها تشكل عامل البيئة. وكما يقول المثل: (الانسان ابن بيئته) حيث تلعب البيئة الجغرافية دورا كبيرا في التنوع الثقافي وكلما تنوعت التضاريس ومناطق الحر والبرودة في البلد الواحد، تنوعت كذلك الثقافات والعادات وطرق العيش كي يستطيع سكان كل منطقة التأقلم وظروف البيئة ومناخها. وقد ظهر مفهوم الجغرافية الثقافية في القرن التاسع عشر في بعض الدراسات التي كانت تختص بالإثنوغرافيا'، كما برزت تلك العلاقة التي تربط بين الجغرافية والأدب–وبخاصة الرواية– التي تروي أحداثا في فضاء زمنكاني وتظهر طريقة عيش وفكر شعب ما في منطقة جغرافية ما من هذا العالم. وعليه، استطاعت البيئة الجغرافية أن تجد لها مكانا في ميادين مختلفة تتعلق بالأدب والثقافة والحضارة. حيث يقول الدكتور 'مايك كرانغ' في هذا الشأن: "الجغرافية الثقافية تنظر إلى أشكال الجماعات وثقافاتها المادية وكذا الأفكار اتي تجمع بينها وتجعلها متماسكة، ...وهذا لا يعني كيفية انتشار الثقافات في المجال فحسب، بل أيضا كيفية فهم هذه الثقافات للمجال." (كرانغ، 2005)

3.3 القيم

إن القيم والأخلاق هي المكون الرئيسي في بناء الأمم والحضارات وخير ما يقال في هذا الموضوع هو البيت الشعري الشهير لأمير الشعراء أحمد شوقي: وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وفي الحقيقة لا يعد هذا البيت من باب المبالغة في التعبير، وإنما يشهد التاريخ عن اضمحلال حضارات وانهيار أمم فقط لانهيار الجانب الخلقي فيها تماما كما جرى للعباسيين وغيرهم. وإن كان كل مجتمع يضع قيما محددة خاصة به يعمل

على نشرها وتدريسها وتثبيتها في أذهان الأجيال لبناء ثقافتهم، فلا يمكن أن ننكر ان الإنسانية جمعاء تشترك في بعض القيم مهما اختلفت لغاتها وبيئتها ودينها: كقيم الصدق والتعاون والرحمة وغيرها.

وهكذا تصبح تلك القيم بمثابة صور نمطية ثابتة لا يمكن اختراقها ولا تجاوزها، بل هي من تمسك زمام المجتمع وتقرر الجيد من السيئ والمقبول من المرفوض فتصنع بذلك لنفسها تصورا محدد يضع المجتمع في إطار عرفي لابد أن يحترمه كل ساكنيه. "إذ ليس هناك إنسان يلبس ما يحب ويسلك السلوك الذي يحب على النمط الذي يحب، ولا يختار ما يحب على الطريقة التي يحب. إنما هو مقيد لأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه." (دياب، 1980، صفحة 51) وعليه فإن المترجم مقيد بهاته الأخلاق التي يجب مراعاتها واحترامها عن الترجمة من ثقافة غريبة بقيمها عن الثقافة المستقبلة للنص.

4.3 الدين

إن الدين كما سبق وأن أشرنا جزء لا يتجزأ من الثقافة باعتباره الباعث الأول للقيم في البشر، فهو يعمل على خلق لشعور بالانتماء كما ينظم المجتمعات ويرسم معالم الحضارات. حيث يقول 'إليوت': " لم تظهر ثقافة ولا نمت إلا بجانب الدين، ومن هنا تبدو الثقافة نتيجة من نتائج الدين." (إليوت، 2001، صفحة 21) ولعل أهم تلك العوامل التي تأثر على عملتي التوطين والتغريب هو عامل الدين. فلو اخترق المترجم حدود الأعراف والعادات والتقاليد وحتى القيم، لن ينهال عليه المجتمع بالسب والشتم بل سينقسم هذا الأخير بين رافض عازف ومؤيد يعتبر هذا الاختراق نوعا من اكتشاف الغريب وحرية في نشر الاختلاف أو تحرر من قيود الثقافة الأم أو شغفا الاطلاع على هوية الغير، لكن أي اختراق للمجال الديني سيجعل الجميع يتفق على أن هذا الأمر مساس بالعقيدة بل في بعض الأحيان يذهبون لتكفير الناقل للكفر ولو عن طريق الترجمة.

خاتمة:

استنادا على كل ما سبق من تعريفات ومفاهيم حول الثقافة والحضارة والترجمة، نستخلص أنه ثمة علاقة وطيدة بين الثقافة والترجمة، حيث يلعب المترجم دورا أساسيا في مد جسور التواصل بين المجتمعات وبخاصة إذا استعمل عملية التغريب أثناء نقل الأدب. فالأدب مرآة الشعوب، ويكفي المرء أن يقرأ رواية أجنبية كي يعرف ولو بعضا من ثقافة شعبها وبيئتها ودينها وبالتالي فهو ينقل هوية الأمم. غير أن هذ الأمر لا يكون بهاته السهولة، فلطالما يجد المترجم نفسه تتجاذب في خضم صراع دائم بين الثقافات والأعراف والقيم والديانات وكذا النظريات الترجمية التي تستدعي منه تحديد موقفه ومن ثم تحمل مسؤوليته اتجاه الثقافة التي سينقل إليها. وهكذا على المترجم أن يختار بين 'اختفاء' خصائص النص الأصل وأسلوبه وأراء كاتبه (أي يقوم بعملية توطين)، فيحاول بذلك تقديم صورة صادقة للنص المصدر، وبأكبر احترام ممكن للاختلافات الثقافية واللغوية، وبين اختفاء ذاته بكل مقوماتها (الثقافية والاجتماعية والجغرافية والدينية) والاحتكام إلى ما يسود المجتمع بمحو الخصائص الأسلوبية والثقافية وتطبيع سمات النص الأصل وصولا إلى تلك الشفافية المنشودة والمقبولية عند قراء النص في الثقافة المستقبلة.

ومن هنا يمكننا الإجابة على الاشكال المطروح أساسا في بداية البحث، ألا وهو: هل يمكن الخروج من عملية الترجمة دون إمساس بالهويات؟ حيث يبدو من البديهي أن عملية الترجمة تستدعي خسارة لا محالة. وبما أننا نتحدث في كل مرة عن عملية 'اختفاء' إما للمترجم وإما لخصائص النص الأصل، فحتما سيكون هناك إمساس بالهوية واقتحام وحرب ثقافية تكون الغلبة فيها للثقافة الأقوى والأعرق التي تحظى لغتها بشيوع أكبر وهيبة أرفع في هيجاء العلوم والأدب.

قائمة المصادروالمراجع

Berman, A. (1999). *La traduction et la lettre ou l'auberge du lointin.* paris: Seuil.

C.R.Taber, N. a. (1982). *The Theory and Practice of Translation.* Leiden E.J Brill.

Christina, M. (2004). The Linguistic Relativity Theory and Benjamin Lee Whorf. *The McMaster Journal of Communication*, 26-31.

Georges, M. (1963). *Les problemes theoriques de la traduction.* Paris: Gallimard.

Meschonnic, H. (1999). *Poetique du traduire.* Verdier.

Newmark.P. (1982). *Approaches to Translation.* London: Pergmen Press.

Nida, E. E. (1964). *Toword a Science of Translation.* Leyede, Brill.

Steiner, G. (1992). *After Babel: Aspects of Language and Translation.* Oxford: Oxford University Press.

Venuti, L. (1995). *The Translator's Invisibilty, A History of Translation.* New York: Rout Ledge.

Venuti, L. (1998). *The Scandals of Taslation.* New york: Routledge.

ابراهيم مصطفى. (1960). *المعجم الوسيط*. اسطنبول- تركيا: المكتبة الاسلامية.

ابن منظور. (الجزء 6). *لسان العرب*. دار المعارف.

التوحيدي. (1953). *الامتاع والمؤانسة*. بيروت-صيدا: المكتبةالعصرية.

انعام بيوض. (2003). *الترجمة الأدبية: مشاكل وحلول* (المجلد الطبعة الأولى). بيروت- لبنان: دار الفرابي.

ت.س إليوت. (2001). *ملاحظات نحو تعريف الثقافة*. (شكري محمد عياد، المترجمون) القاهرة: الهيئة العامة لكتاب-مكتبة الأسرة.

جميل صليبا. (1982). *المعجم الفلسفي*. بيروت: دار الكتاب البناني.

حسام الدين كريم زكي. (2005). *اللغة والثقافة*.

روبنس دوغلاس. (2009). *الترجمة الإمبراطورية*. سوريا: دار الفرقد.

سلامة موسى. (1927). *الثقافة والحضارة*. القاهرة: مجلة هلال.

علي عزت بيغوفتش. (12 10, 2013). *الفرق الدقيق بين الثقافة الحضارة كما يراه بيغوفتش*. تاريخ الاسترداد 01 02, 2022، من ساقية: https://saqya.com/author/abdulmohd74/

فوزية دياب. (1980). *القيم والعدات الاجتماعية*. القاهرة: دار النهضة العربية.

مايك كرانغ. (2005). *الجغرافية لثقافية... أهمية الجغرافية في تفسير الظواهر الانسانية*. (سعيد منتاق، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة الكويتية.

محمد الخطيب. (2005). *الأنتروبولوجية الثقافية* . سوريا: دارعلاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.

محمد عناني. (2003). *الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق*. مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان.

هاني عبد الرحمان مكروم. (1999). *التصور العقلي*. القاهرة: مكتبة وهبة.